سوسيولوجية العمّال الجزائريين لبيير بورديو
من وجهة نظر إيثنولوجيا الحاضر

لوران بازين

بيير بورديو و العمل في الجزائر:

من بين جميع كتب بيير بورديو يعتبر كتاب "العمل و العمّال في الجزائر" الصادر عام 1963، الكتاب الوحيد الذي تطرّق إلى العمل بشكل تفصيلي كموضوع بحث غير أنه، وبدون شك، يعتبر أيضا الكتاب الأقل شهرة.

ففي أعماله اللاحقة قام بيير بورديو نفسه بمواصلة استغلال و تطوير المواد الإيتنوغرافية حول منطقة القبائل، والتي كان قد جمعها في بداية حياته المهنية غير أنّه لم يمنح الإضافة المباشرة في هذه الدراسة المكرّسة لأوضاع العمّال وطبيعة العمل. هذا الكتاب المكوّن من 550 صفحة يعتبر صعباً، فالجزء الأوّل يتكوّن من سلسلة جداول مع البيانات الإحصائية التي تمّ جمعها و تنقيحها من قبل ثلاث إحصائيين [أ- دربل، ج ب ريفي، س سيبل] بينما الجزء الثاني يتكوّن من دراسة سوسيولوجية قام بها بيير بورديو وهي مكمّلة لبيانات دراسة كمية أُجريت من خلال ستين (60) مقابلة لسير ذاتية.

إنّ شكل الكتاب، وإن كان يزيد من صعوبة قراءته فهذا الأمر ليس صدفة، إذ أنه، وفي نهاية الحرب رفضت الحكومة الفرنسية –من جهة- ولحقبتين من الزمن تحديد ذلك كما أن الروح الثورية ميّزت تلك الفترة المثالية من جهة أخرى. و كأنّ الأمر يتعلّق بالنسبة للكُتاب أن يرموا في وجه الجمهور حقيقة الوقائع وموضوعيتها العلمية من أجل كشف زيف الخطاب الاستعماري.

يوجد هنا كما سنفصّله بذور الإهتمام بالحاجة إلى عمل علمي دقيق للموضوعية ولكشف وتفكيك مقولات الحس المُشترك التي تخترق بعد ذلك كل مؤلف بيير بورديو.

صدر كتاب "*العمل والعمّال في الجزائر*" بعد سنوات قليلة من نشر كتاب "*علم الاجتماع في الجزائر*" الذي صدر للمرة الأولى عام 1958 وسبق ذلك نشر كتاب "*الاقتلاع*" لعبد المالك صيّاد عام 1964. هذه الكتب الثلاث تكمل وتفسر بعضها البعض.

يستنكر الكتاب الأوّل الإعتقاد القائل أنّ الجزائر فرنسية لأنّ الأمر لا يتعلّق إلاّ بالمجتمعات المسمّاة "أصليّة" [سكّان القبائل، الشاوية، الميزاب، والمعربين] لمقاربتهم في تحليل " العمق المشترك" وبعد ذلك في تحليل الإستيلاب الاستعماري.

المجتمع الأوروبي غائب في هذا الجدول و كأنّ الكتاب يرمز إلى الهجرة الجماعية، أمّا كتاب "الإقتلاع" فيظهر العواقب [النتائج] من حيث إفساد النظام الاستعماري للمجتمعات الريفية الجزائرية، وتهجير سكان القرى إلى المخيمات الجماعية.

تقوم هذه الإستراتيجية للقوّات العسكرية بتمديد وإتمّام عملية التفكيك التي يقوم بها المعمّر من أجل تقويض الأسس الاقتصادية للمجتمعات المحلية بهدف تحطيم آليات

التضامن وتسريع وتيرة الأزمة الزراعية التقليدية، وعملية الهجرة إلى الأحياء القصديرية بضواحي الجزائر [مثل فرنسا] بالإضافة إلى التّحولات الاجتماعية التي تمسّ المجتمع الجزائري.

و بشكل عام يعمل بورديو في هذه المرحلة الأخيرة لحرب التحرير الجزائرية التي تعتبر المسرح الذي بدأ فيه أبحاثه, على إبراز طريقة الاستعمار في [اغتصاب الأراضي, تفكيك النظام القبلي, التهجير]، الذي أنتج طبقة شبه بروليتارية مستغلّة ومستلبة. وهنا يركّز بالخصوص على التفاوت بين مواقف البروليتاريا الدنيا وإدماجها اجتماعيا في المجتمعات التقليدية المبنية على الزراعة، والشروط المفروضة من قبل نظام العمل المأجور المرتبط بالرّأسمالية التي أدرجها الاستعمار. وهو في المقام الأوّل علم اجتماع لنزع الملكية: فلاّحين من دون أراضي, عمّال بدون عمل, بدون مهنة أو حرفة, مدنيون من دون مدينة, إنسان تقليدي ميؤس ومنزوع الثقافة، فالعامل الجزائري مجرّد مُستغلّ وفي نفس الوقت غير متأقلم مع النظام الّذي يستغلّه.

تقترب الإشكالية الأساسية في كتاب "*العمل والعمّال في الجزائر*" إلى ما يشير إليه التفكير الماركسي السّائد في تلك الفترة تحت مصطلح البروليتاريا والانتقال إلى الرّأسمالية، بما أنّ الأمر يتعلّق بدراسة إدماج البروليتاريا الجزائرية في النظام الرّأسمالي.

في هذه الفترة، لم يؤسس بعد بورديو مفاهيمه الأساسية أما مصطلحات التكيف والتأقلم فهما في صميم تحليله. يمكننا القول، وبدون شك، أن الحاجة إلى النظر في التشوهات الكامنة في النظام الاستعماري في الجزائر قد تكتنفها أسس مفاهيمية مثل : الهابيتوس .الوصفية ...الخ والتي تعتبر محاولة للتمييز عن مصطلحات علم الاجتماع النفسي والماركسية(الاستغلال، السلب، الطبقة، البروليتاريا وما تحت البروليتاريا.....الخ. إن طريقة بورديو أنتربولوجية في فهم كيفية استعادة تناسق المجتمعات التقليدية الجزائرية، لاسيما عند اهتمامه بالاقتصاد والعمل مفككا هذه المفاهيم من أجل إعادة استعمالها في سياق اجتماعي وثقافي محدد.

وفي هذا المعنى تكون مساهمته في التحليل الأنتروبولوجي لفئات العمل أساسية حيث يشير على سبيل المثال إلى أن مفهوم العمل لا وجود له في النظام الزراعي للمجتمعات التقليدية[1]. فالعمل ينتج في سياق حركة بروليتارية في مواجهة الفلاحين " الذين اقتلعوا من جذورهم" مع البطالة، التي تهددهم بالسحق الاجتماعي. في السياق الحضري، يترتب عن ذلك، حسب تفسيرات بورديو، انفصال الوظيفة الاقتصادية والاجتماعية عن العمل. ولربما بدفع النظام الاستعماري في الجزائر إلى تفكيك المقولات الاقتصادية، والتي يظهر بورديو ميلا بعد ذلك اتجاهها لاستخلاص المقولات الاقتصادية من إطارها وإعادة صياغتها في مفهوم يشير إلى تغيير العلاقات الاجتماعية، (إبراز مختلف رؤوس الأموال التي ترافق نظرية الحقول)، وهذه طريقة لإعادة الاقتصاد إلى مكانته.

أما بالنسبة إلى مفهوم الهيمنة الرمزية الذي سيأخذ أهمية كبيرة في كتاب بورديو : ألم يفرض نفسه كمفتاح يسمح باستعادة فهم شكل من أشكال الهيمنة الاستعمارية والعنف المفرط؟.

إن كل من جون بول سارتر وألبرت ميمي (1957) تطرقا لهما ورسما صورة للمستعمر، في حين تكلم فرانس فانون (1961) عن محو الشخصية [2]. ومن جهته يقول بورديو انه ينتمي إلى نظام لا يسمح له أن يدرك بوجه خاص ما هو مناسب.

يجب تسجيل ملاحظة هنا بأن بورديو كان في قطيعة مع السواد الأعظم ممن كانوا في الحقل الثقافي لتلك الفترة والذين بوعي أو بدونه لا يقدرون سوي على تبرير الحرب وتداعياتها. كما أنه في خلاف مع اثنولوجية الحقل الاستعماري، حتى عندما تدعي قربها من السكان الأصليين مثل جرمان تيليون.

ينتقد بورديو الذين ينشئون نظام السيطرة الاستعمارية والعنف الممارس على الشعب الجزائري، مع الإشارة إلى بطولة الشعب والفلاح الثوري.

هنالك شيء ما لدي بورديو من اشتراط الدقة العلمية والذي كان يسعى لبلوغه منذ السنوات الأولى من حياته المهنية، إضافة إلى أن أكبر أبحاثه خلال الحرب، والتي كان يأخذها بمحمل الدقة العلمية ولكنها لم تخلو من الغموض : *العمل والعمال في الجزائر* يقدم تحليلا للظروف الاجتماعية للبروليتاريا الحضرية في حين يبقى الغريب أنه منفصل عن الصراع، ودراسة ما يمكن أن يسمى في المصطلحات الماركسية الوعي الطبقي، ليظهر على وجه التحديد أنه غير موجود، الكادحين والحضر غير مبالين بالنظام الذي يستغلهم وهم غير ثوريين[3].

إن طريقة بورديو تقربه من وجهين أخريين في الإنثروبولوجيا ، واللذين نادرا ما جرت مواجهة بينهم : جورج بلنديي وجيرار ألتاب : الأول (جورج بلنديي) أصدر سنة 1955، علم الاجتماع الحالي لإفريقيا السوداء وعلم إجتماع برازافييل السوداء.

قبل أن نحدد الفوارق بين المقاربة التي وضعها ج.بلنديي، حين أشار إلى ديناميكية المجتمعات تلك التي طورها بورديو والذي يبقي متأثرا بالبنيوية يجب الإشارة إلى الهاجس المشترك لأجل تجاوز الاثنولوجية الاستعمارية القديمة والمتصلبة –غير قادرة على التفكير في التغيير بالإضافة إلى سياق الاستعمار نفسه. بإدخال المواد والأدوات السوسيولوجية في تحليل الأنثروبولوجي، والعكس بالعكس.

من جانبه ج.ألتاب 1963 درس البطالة في برازافيل أين أظهر بأن فئات العمل والبطالة التي يفرضها الاستعمار في السياق الحضري كانت على خلاف مع ممارسات وتمثلات العمل التي وضعها المجتمع ، ثم أدرج السيطرة الاستعمارية في الصميم حين ممارسته التحقيق وتحليل المجتمع المدروس في مدغشقر 1969، تليها عودة منطق المشاركة في حرب الكونغو 1972، هؤلاء المؤلفين الثلاثة كلهم طوروا فكرة خاصة ولكن ما يوحدهم هو أنه في سياق إنهاء الاستعمار، الأماكن الخارجة عن السياق العلمي في ذلك الوقت، خاصة مع مقاربة النهج الأثنولوجي، أدى بهم لاستثمار مناطق مجهولة إلى يومنا هذا . هنا يظهر: تحليل السيطرة الاستعمارية، والتحقيق في السياقات الحضرية والاهتمام الممنوح للعمل .

وهكذا يمكننا أن نفهم بأن بورديو أصبح المستبعد من الأسرة ، حسب مصطلح ألبان بنسا (2003) ويعتبر حصريا مثل عالم الاجتماع

ضمن التيارات الأكاديمية في الإنثروبولوجيا. هؤلاء يقاتلون بضراوة أكبر علم أجناس الحاضر الذي قال به جيرار ألتاب في 1970 عندما شكل مع باحثين شباب (بما في ذلك مونيك سليم) فريق من علماء الأنثروبولوجيا إختاروا كساحة للتحقيق الضواحي الفرنسية (ألتاب عام 1988، التاب وآخرون،1985،1984)

المواقف المعرفية :

لا يعطي بيير بورديو سوى بيانا موجزا جدا عن مواقفه المعرفية ، في مقدمة مساهمته في "العمل والعمال في الجزائر" يبدأ نصه بالإجابة على مقال بتاريخ 1950، الذي يدعي فيه ميشال لريس انه لا يمكن أن تكون هناك موضوعية في علم الأجناس في الحالة الاستعمارية. لذلك وبكل، وضوح:"أن فكرة الموضوعية السوسيولوجية" هي التي يتبعها بورديو حين يسحب بدقة تحقيقاته إلى قلب عمليات الطرد والإبعاد من النظام الاستعماري. ساخرا، ميشيل لريس، يؤكد بأنه على "" الأثنولوجي، إلزام مطلق لا من الناحية الأخلاقية و لكن من الناحية العلمية: ليس من التصرف ولا الموقف أو الايدولوجيا التي يمكن وصفها وفهمها وشرحها بطريقة موضوعية خارج كل مرجعية للحالة الوجودية للمستعمر كما هي محددة من طرف حركة القوى الاقتصادية والاجتماعية المميزة للنظام الاستعماري.

وخلاف ذلك سيوجد نوع من الاختلاس الأنطولوجي لإخفاء ما هو جوهري في الحالة هذه أي نظام علاقات محدد بالضرورة ومستقل عن الإرادة الفردية [4] بالاستناد إلى من ينظم المواقف والسلوكات غتلك هي مسؤولية علم الأجناس"

ليكتب بعيدا عن ذلك "" المقاربة الاثنوغرافية المحضة تتصادم مع واقع واسع جدا، معقد ومتحرك جدا، حتى نتمكن من التفكير بتعميم النتائج التي تقدمها الدراسات وإن تعددت، والمخاطرة بالواقع على وجه الخصوص، ولكن بشكل خاص لا تغطي النواحي الحقيقية السينوغرافية الأكثر أهمية مما هو ضروري وأقل تأثير (...) ولكن بالمقابل المعرفة الاثنوغرافية فقط هي التي لديها المشاكل العمالية في المجتمعات الريفية والحضرية والتي يمكنها أن تمد الجسم بافتراضات أولية يتم استخدامها لتطوير الاستبيان".

هذان المؤشران يستحقان التوقف عندهما، من جهة يواجه بورديو مشكلة فهم المجتمع المستعمر الذي هو قضية عولجت على وجه التحديد من قبل بلنديي منذ ما يقارب عشرة سنوات، لكنه اختار أن يتجاهلها باستلهام إشكاليات من علماء الانثروبولوجيا البريطانية الذين ركزوا على تحليل التغيير الاجتماعي، بما في ذلك جواب المجتمعات للاستعمار).

إن ج بلندبي هو مؤسس الانثروبولوجيا الحيوية. في مقابل لحدود الانثروبولوجيا الديناميكية التابعة لليفي ستروس الذي يسيطر بهيبته الكبيرة على المسرح العلمي في فرنسا وخارجها. بين "مداريات حزينة" لليفي ستروس و"علم الاجتماع الحالي لإفريقيا السوداء" الصادرين عام 1955، المفارقة مؤثرة بما أن الأول يرثي عالم موعود بالاختفاء، في حين الثاني، يتحدث عن المجتمعات التي أصبحت في سياق إنهاء الاستعمار.

إن نظرية بلندي لا تحتاج فقط إلى التفكير في الوضع الاستعماري باعتبارها الإطار التأويلي أين

يجب علينا بأن نفهم ديناميكا أشكال التنظيم الاجتماعي، بل شدد أيضا على الضرورة التي يجب اتخاذها لتحقيق مبادرة المجتمعات المستعمرة باسترداد المبادرة التي هي في غالب الأحيان تحت سيطرة الحركات الدينية[5]، لذلك بلنديي وأتباعه الإفريقيين أعطوا اهتماما كبيرا للحركات الدينية التي ظهرت في كل مكان ردا على الاستعمار .

سنعود إلى هذا الجانب في الجزء الأخير من هذه المقالة. نشير فقط هنا بأن الجزائر التي درسها بيير بورديو ليست مجرد مجتمع مُستعمر، لكنها تخوض حرب تحرير.

إذا ما حاول ، كما قلنا، بورديو التمسك بإظهار مدى الاغتراب والاستلاب (المادي والثقافي) الذي أنتجتهما الحالة الاستعمارية، فإن الصراع الجزائري غائب تماما عن "العمل والعمال" أما البعد الديني، فمن الصعب أن نجد له تحليل عند بورديو والذي لا يرى إلا جانبا واحدا من "تقليدية اليأس" مثلما هو الأمر مع المستشرقين قبله) في حين أنه يشكل عنصرا حاسما في التعبئة ضد المستعمر.

وبالتالي بتجاهل عمل بلنديي فإن الموقف الإبستمولوجي الذي اعتمده بورديو بالاقتراض من ماركس، مبدأ تعرية نظام ""العلاقات المحددة، والضرورية والمستقلة عن الإرادات الفردية، هذا الإقتراب من موقف كلود ليفي ستروس المتمثل في فكرة أن هذه المهمة هي خارج نطاق أساليب الاثنوغرافية.

هذا الموقف في واقع الحال يجد تعريفه في الأنثروبولوجيا البنيوية من خلال ليفي ستروس، الذي يميز بين "المجتمعات الباردة" (وتسمى بدائية قديمة وتقليدية، الخ) تحت سيطرة هيكل مستقر ميكانيكي مع مرور الزمن ، إذ يمكن معالجتها من خلال الأسلوب الاثنوغرافي، وعلى الجانب الأخر نجد المجتمعات الساخنة (الحديثة) التي لا يمكن فهم بنيتها الاجتماعية إلا عن طريق الأدوات الإحصائية. على الرغم من انه يحاول الانفصال إلا أن التأثير الأولي لليفي ستروس على بورديو يحدث في هذا المزيج الخاص الذي يعمل على مزج الطريقة الاثنوغرافية وتعبئة الأدوات الإحصائية، وذلك على مستوى اهتمامه بالرمزي.

كل مؤلف بورديو يتميز بمحاولة التغلب على الأنماط الأولية هذه، مع إعادة التفكير في الوقت نفسه في النماذج المهيمنة الكبرى لعصره، في نظرية تستند على اكتشاف بنية المواقف الاجتماعية وطريقتها في التأسيس والاستيعاب.

ظلت أنثروبولوجيا ليفي ستروس سجينة الإطار الرمزي الاستعماري، في حين بورديو ضمن السياق الجزائري وفي ذروة أعمال العنف التي يتعامل بها من اجل الممارسة والرمزية، يبرز كل منهما بصورة متبادلة.

إن موقف بورديو على الصعيد المعرفي يفترض على الأقل أن الموضوع أو الفئات الاجتماعية تعتمد على بنية العلاقات الاجتماعية، فهي نتاج للهيكل وليس لديها استقلالية اتجاه ذلك، فالفاعل هو المتصرف. ولا يمكن التفكير والتخيل إلا داخل نظام، حالته المادية، القانونية، والذاتية يحددها موقعه في بنية المواقف الاجتماعية لأنه لم يتم حتى الآن تطوير صياغة النظرية الهيكلية للمواقف الاجتماعية، التي هي أساس علم اجتماعه في "العمل والعمال في الجزائر". إلا أنها على الأقل في صميم العمل وتشكل قلب التحليل الذي يقوم به، لذا يؤكد في نهاية مدخل

الكتاب: عند دراسة مقابلة جمعت مجموعة متجانسة، ترسم صورة مميزة عن إنسان هذه الفئة، لم يكن مألوفا في المعرفة المتعمقة لفرد معين ، التقى مرة في مقهى المرسى، القصبة أو في مدينة محي الدين. أن يمنح الصلة البديهية الذي يسمح بجمع في مجموعة حية الأعضاء المتفرقة الآتية من مختلف المقابلات (...) التي تستند على بيانات إحصائية وتحليل منهجي لا جدال فيهما ، وإن اختيار أفراد النموذجين يسمح بالعودة للمسار الطويل من دون التعرض للسقوط في الحدس الانطباعي للطرق التقليدية للأثنوغرافيا"

إذا ما اعتبرنا الآن بأن المقاربات الخاصة لألتاب و بورديو، يجب كذلك أن نلاحظ بأنها تتجلى تقريبا بالضبط في اتجاهين متعاكسين . ألتاب (في كل من الكونغو ومدغشقر) يبذل مجهودا لتوضيح ليس فقط كيف يمكن للكيفيات المطروحة من قبل الإستعمار والعمل المأجور أن تكون أجنبية بالنسبة للمجتمعات التي يدرسها ، ولكن خصوصا أي معنى تأخذه في عالم هذه المجتمعات. هذه التحاليل ترتكز على هذا العالم وعلى الديناميات التي يتم تنفيذها من أجل حل الأزمات المفتوحة جراء الهيمنة الخارجية . هذا هو النهج الذي وضع لكي يكون له معنى يوضح الصراعات المسلحة التي تحدث في إطار الاستعمار الجديد في مدغشقر (ثورة 1972) وفي الحرب التي تلت استقلال كونغو(ألتاب،1972،1998).

تجدر الإشارة في سياق الجزائر أن المستعمر كان ذا طابع خصوصي جدا ، إذا ما حاولنا النظر إلى باقي أشكال الاستعمار إفريقيا: تم طرد السكان الأصلين وحرمانهم من رقعتهم الخاصة، وزرع مكانها مجتمعات أجنبية حيث كان هذا الأمر أكثر مما حدث في أي بلد أخر باستثناء جنوب إفريقيا ف "الساكن الأصلي" أضطر للتناسب مع عالم غريب يقلل من شأنه . هذا السياق يحدد من دون شك الفرق بين نهج التاب ونهج بورديو : حيث يسعى هذا الأخير لإظهار كيف تدهورت، أو مسحت، مقولات التفكير الخاصة بالعالم التقليدي ، مما اضطر العمال بسبب الحاجة إلى التكيف مع بيئة العمل الجديدة.

إن نسق العلاقات المفروضة بقوة الرأسمالية والاستعمار تحتل الحيز المركزي- . لذلك فإن بورديو يلاحظ المكانة التي يحتلها المستعمر داخل النظام الاستعماري أو بكيفية أخري، يلاحظ مكانة المسيطر عليه في عالم المسيطر. على العكس ألتاب، وهذا ما يشكل أصالته، يحلل المكانة التي يحتلها المسيطر في عالم المسيطر عليه.

بما أنه باحث من عالم المسيطر، فإن ألتاب يتسأل عن المكانة التي يحتله هو نفسه في العالم الذي يدرسه أثناء البحث، وهو في حقيقة الأمر وسيلة للتحليل الذي يقوم به. [6]، هذا ما يظهر في السؤال الذي طرحه ميشال لريس، بينما بورديو كما رأيناه يجيب بهاجس يصبح نظريا لاحقا من خلال مفهوم القطيعة الإبستمية.

هذا الهدف الاعتراضي، القطيعة الإبستمية، يجد معناه في إرادة التمييز عن الإطار الإيديولوجي الإستعماري وعن الوعي الثوري الذي بدء يتولد في تلك الفترة، ليس فقط في سياق الصراع الجزائري، ولكن بالإجمال في ظروف مرحلة التحرير من الاستعمار، والتحرير من النضال ضد النزعة التسلطية، ومن الحرب الباردة مع الماركسية باعتبارها الأنموذج المهيمن. في هذا السياق، عمت الطبقة العاملة والفلاحين،

و"المعذبون في الأرض"(فانون)، موجة ثورية،. فمن صالوناتهم أو مكاتبهم ،المثقفين الفرنسيين في تلك الفترة غالبا ما كانوا ثوريين" (...) كما لاحظ ذلك ألتاب في سيرته الذاتية(2005)[7].

بهذا التصور الأسطوري الثوري، يختلف بورديو عندما يؤكد ضمنيا على أن الطبقة العاملة الجزائرية لم تكن ثورية، مبينا أن الطبقة العاملة لم تكن تعي الكيفية التي يستغلها ويستلبها بهاالنظام .

ولذا فهو يضع مقابل التصور الأسطوري الثوري الموضوعية السوسيولوجية بدراسة العناصر التي تشكل الرأسمالية: المرتبطة بالزمن، مقارنة بالدخل النقدي، ومقارنة بالتحضر، خشية من مصير المستويات المختلفة من الاندماج في النظام الرأسمالي ومن المواقف التي تضعها.

فهو لا يطوره، ولكنه يعمل على تفكيك الخطاب الاستعماري للأهالي، بسحب نظرته على جميع المكونات التي تستند على مرجعية الأهلي/ المتحضر: في المخيلة الاستعمارية، هذا الأهلي الطائش، الكسول، لا يعرف الحساب، هو طفل كبير، ماكر، كذاب.....الخ."إسراف هذا الأهلي" هي القاطرة التي تشغل هذه الفترة الاستعمارية (دامون،2009). كل هذه النقاط هي التي تصنع لب موضوع العمل وتوضح منهجية بورديو.

إن موقفه الإبستيمولوجي الذي يطوره ويشرحه في بعض أعماله لاحقا، لاسيما من خلال مفهوم القطيعة الابستمولوجية التي تهدف إلى تكوين معنى السوسيولوجي للفهم المشترك. والتي تتطلب بالتالي الإبتعاد عن التمثلات التي يكون الواقع فيها قد تم إستغلاله لأجل تفكيكها وذلك بمقارنتهم بالتحليل "الموضوعي"للحقيقة بعلم الاجتماع : إنه الدور التشيئ السوسيولوجي، بمعنى أخر لعملية ابتدأت بتوضيح بنية المواقف الاجتماعية لتغيير موضعه، ومن ثم نظرة للعناصر الفاعلة (...) مع تقدير للمكانة التي يحتلونها. عند بورديو صاحب ""العمل والعمال في الجزائر"" حيث هناك إقرار للشروط الموضوعية للوجود، مما يعني، الموقف الذي احتلته في العلاقات الرأسمالية .

هذا التحديد الناتج بسبب الحاجة هو الأقوى بين القطائع الاجتماعية الأكثر سيطرة عليها، والذين هم من جهة أخرى محرومين ماديا وثقافيا، لا يوجد قرار نابع من الهيكلة الهادفة يشير إلى علاقات الإنتاج (مثل ما هو في الماركسية) ولكن هناك ما هو نابع عن طريق هيكل المواقف الاجتماعية التي اشتملت على اللامساواة في الأوضاع المادية والمعيشية والملكات غير المتكافئة في الوعي بطبيعة نظام الهيمنة، وبالتالي بشكل الهيمنة الذاتية.

إن معظم البروليتاريين وشبه البروليتارين لم يكن لديهم ملكة رؤية النظام الذي يقوم بسلبهم، ولا حتى قدرة العزم على مشروع للمستقبل. لم يحلموا أو أنهم مضطرون في إطار الأسئلة التي طرحت من طرف المحقق على أن يلقوا بأنفسهم في " الممكن المستحيل". هنا أيضا، يجب ملاحظة طريقة تحليلية مغايرة لألتاب، الذي يحرص بالضبط على تحليل ووضع مفهمة "التجاوزات في الخيال" من حالة القهر."[8].

في تحليله، يبدأ بورديو باستعادة وجهة نظر العمال بشأن أوضاعهم، ولكنه يعتبر هذا الشرط أساسيا فقط من ناحية علاقته بالنظام الرأسمالي: فهذه ليست رؤية شاملة للعالم التي يصنعها هؤلاء البروليتاريون والذين يشكلون

مركز المجهودات التي بذلها بورديو. ربما هنا المقاربة التي ترتكز على بحث أثنولوجي تتميز عن تلك التي ترتكز على الإحصائيات باستخدام التحقيق الاثنوغرافي كمساعد.

أخيرا، إذا فهمنا جيدا رغبة بورديو في وضع جانبا الأساطير الثورية لفهم الظروف الاجتماعية للعمال وممثليهم، والصمت التام في الحرب ضد الاستعمار والتأكيد أن العمال ليسوا بثوريين كل هذا يشير على انه يوجد زاوية ما غير واضحة في تحليل بورديو لمسألة مهمة.

ليس بالضرورة أن يؤكد انه ضد النظام الرأسمالي على هذا النحو كنظام "موضوعي " للهيمنة والاستغلال إندلع الصراع الجزائري **لكن ضد النظام الاستعماري** بما أنه نظام الهيمنة الاجتماعية والقهر، ولكن لاشيء في الكتاب يجعل من الممكن فهم كيف للفئات الاجتماعية الجزائرية أن تحدد موقفها في إطار الصراع، أو بشكل أعم بالنسبة لنظام القمع السياسي، والفكري والعسكري، الذي كان آنذاك في ذروته. أذكر التأكيد الذي جاء في المدخل "إنه ليس من تصرف موقف أو أيديولوجية، التي يمكنها يمكن وصفها، فهمها وشرحها موضوعيا من دون أي إشارة إلى الحالة الوجودية للاستعمار على النحو الذي تحدده القوة الاقتصادية والاجتماعية التي تخص النظام الاستعماري". إن تحليل بورديو يبقى في الواقع معتمد على تقرير النظام الرأسمالي باعتباره نموذج معين من العمل الذي يختلف عن النشاط الإنتاجي في المجتمعات التقليدية الجزائرية هنا تتعين حدود عمله .

إن الرغبة في تسليط الضوء على أوضاع الهيمنة الذاتية تواجه من جهة موقف من النزعة الموضوعية التي تبحث على أن تضع النزاع الجزائري بعيدا عن التحليل (...)، ومن جهة أخرى عن مبادئ الأولية التي يقوم عليها تحليله الذي يفترض أن الهياكل الموضوعية للهيمنة عمادها النظام الرأسمالي.

بالبحث عند ماكس فيبر نجد أن الطرق المؤدية إلى الابتعاد عن النموذج الماركسي هي السائدة في ذلك الوقت، بورديو كان لا يزال محاصرا بالفكرة التي تعطي الأولوية لعلاقات الإنتاج لكن السيطرة الاستعمارية لا يمكن اختزالها على وجه التحديد في جانب واحد من علاقات الإنتاج: وهكذا طرح بعده الفعل الاستعماري، الذي أصبح مبهم حيث بدأت حرب الاستقلال سنة 1954.

مبادئ التحقيق الاثنوغرافية عند ألتاب :

عندما أدرج ألتاب الأتنولوجية الحضرية في منتصف سنوات 1970، فقد عالج بالضبط نفس المشكل المعرفي الذي وجهه بورديو، مع التذكير بموقف الهيمنة للفي ستروس الذي يُفرض على الأنتروبولوجية الفرنسية في مقابل الأنتروبولوجية البريطانية والأمريكية) مشيرا إلى حجتين:

" الأتنولوجة ليس لها ميدان (في المجتمعات الحضرية الراهنة) لدرجة أن الميدان الذي هو ميداننا : ميدان التفاعل الشخصي ليس لديه إستقلالا ذاتيا ولا يمكننا تصور سوى تحديث الأنظمة العامة للاتصالات.(...) عندما يتناول الأتنولوجي عالما اجتماعيا أين يكون طرفا فيه، فيكون غير قادر على التحرر من الاشتراك الذي يربطه بمحاوريه، حيث يبقى عالقا بالتمثلات التي يتقاسمها معهم، فالمعرفة التي يمكن إنتاجها تأسر من وجهة نظرهم" [9] .

هذان الجانبين هما في صلة وثيقة مع تصور ليفي ستروس (1958،1962،1973،1983) هكذا

يجيب بورديو كما رأيناه ، من خلال محورية معينة على الدراسة الاستقصائية /الإحصائية بالاستبيان، باعتباره الطريقة الوحيدة لتحديد المواقف الاجتماعية والهيكل الأساسي للمجتمع، " محددة بفعل القوى الاقتصادية والاجتماعية"

تجمع الدراسة الأثنوغرافية النهج الإحصائي نابع من تحديد القضايا ذات الصلة بإثراء المعرفة ببعد شامل للفهوم تمكنها في الآن نفسه من فهم المكونات المختلفة للمواقف الاجتماعية المتعرف عليها.(بما في ذلك التمثيل والتوضيحات الايديولوجية الناشئة) وأنماط السيطرة الذاتية. يميز هذا النهج تقريبا كل أعماله "بؤس العالم" الصادر في 1995، باستثناء تلك التي تعيد العمل على المواد الأثنوغرافية على القبائل (موجز نظرية الممارسة والتطبيق العملي).في هذا المعنى، لا يبتعد عن الانفصام المعلن من قبل من طرف ليفي ستروس بين المجتمعات "الباردة" و"الساخنة" (التي تعيد صياغة الازدواجية وتعبر كل علم الاجتماع:"الطوائف" و"المجتمع"عند تونيس و"التضامن الميكانيكي""، "" والتضامن العضوي"عند دوركهايم، الخ ...

في نظر بورديو، الفاعلون والعلاقات الاجتماعية لديهما "الاستقلالية النسبية" لكنها استقلالية ثانوية قياسا بالبنية المنطقية للحقول الاجتماعية بإعتبارها محددة لوجودها، بطريقة أخرى، من خلال بنية المواقف الاجتماعية.

أما الجانب الثاني من موقف ليفي ستروس عن غيرية الباحث والمجموعات الاجتماعية المدروسة، يقدم بورديو إجابة من خلال موقفه الموضوعي وواحد من مفاهيمه المحورية، الذي لم يدرج بعد في "العمل والعمال في الجزائر"إلا أنه يعيد صياغته في جميع أعماله: القطيعة الابستمولوجية. حيث تعمل القطيعة الابستمولوجية على صهر كل الأدوات، بما فيها اللسانية، التي يمكن أن يشحذها عالم الاجتماع مع "الحس السليم" بتفكيكه، وبرد الحسي الموضوعي للفاعلين إلى موقفهم الاجتماعي.

وباختصار أن " القطيعة الابستمولوجية " كوسيلة تحقيق للموضوعية العلمية، تستمر "بنظرة بعيدة" مع الفارق الجوهري .

هذا الأمر لدي ليفي ستروس عبارة عن علاقة غيرية بدون إشكالية، بمعني أنه مفكر فيه كما لو أنه كذلك ، في حين أن الأولى عند بورديو هي الناتج لتشييئ سوسيولوجي.

الجواب الذي يمنحه ألتاب للمشكل المطروح من طرف ليفي ستروس هو عكس تماما من ذلك الذي طرحه بورديو. فبالنسبة لألتاب إمكانية إجراء دراسة استقصائية إتنولوجية قوامها الفرضية التي قدمناها : أن الفئات الاجتماعية التي تشكل موضوع التحقيق تنتج علاقاتها في "إستقلالية ذاتية نسبية"، بمقارنة مع الظواهر الكلية التي تشكل المجتمع (و هذا يعني، على وجه الخصوص، نظام إنتاج الرأسمالية وهيكلة المجتمع إلى طبقات وفرض هيمنتها السياسية، وهي أساسية في عمل ألتاب وغائبة عن أعمال بورديو في الجزائر). إذا كان الاستقلال الذاتي غير موجود فإن البحث الأتنولوجي تنعدم حدته.

مقارنة مع وجهة النظر التي وضعها بورديو، الاستقلال الذاتي النسبي عند ألتاب كامل إذا سمحنا لهذا التناقض في اللغة: فالأطراف الفاعلة هي المواضيع، وهم المنتجين لـ:" التبادلات بين- شخصية" التي ينغمسون في داخلها.

هذا الموقف ليس نفي لعلاقات الهيمنة الكلية، ولكن على العكس من ذلك تتناسب مع فكرة أنه من أجل التجذر داخل مجموعات إجتماعية متفردة، ومحددة فإن علاقات الهيمنة يجب أن تكون معينة، ومحددة، ظاهرة ومستخدمة من قبل الفاعلين في ديناميكية حتى في إنتاج علاقتهم المتبادلة في أشكال دوما منفردة.

من هذا المنظور، فإن مسألة منح أهمية كبيرة لحقائق محددة ولكنها مثيرة بشكل خاص"(). لا تطرح بنفس الطريقة بما أنهم يستطيعون هم أيضا تكوين ظواهر هامة، وذلك في تحليل عمليات الكشف عن مجريات الأمور على نهج بورديو الذي يستعملها بشكل ثانوي.

المسافة الثقافية الشهيرة "النظرة البعيدة" التي يجعل منها ليفي ستروس الشرط الأساسي للمقاربة الأتنولوجية، مثلما هو الأمر مع "" القطيعة الابستمولوجية"" تحتل نقطة مركزية في مؤلف بورديو .

بينما ألتاب على العكس من ذلك . فالبحث الأتنولوجي ، يبدأ بإلغاء المسافة والقطيعة بين الباحث ومواضيع بحثه، لأن الأمر يتعلق بالنسبة للأول ببناء، مع الأخريين، جهاز من الاتصالات: تعتمد طريقته بأن يجعل صيغ التبادل الشخصية هذه وسيلة إنتاج معرفة الأساليب المنطقية الداخلية لهذه المجموعة الاجتماعية.

إذن وسائل التشيء تجعلنا نفهم العلاقة من البحث بمعنى فهم كيفية وضع مواضيع الباحث وتحقيقاته في تقاريرها الداخلية أو ، من الأفضل كيف يطور وينجز الاتجاه البحث نفسه.

لورن بزان ترجمة نسيمة شامي باريس 8

الهوامش :

1- تزداد ظهور في الوقت نفسه أنثربولوجية اقتصادية ماركسية والتي توجه كل اهتمامها خصوصا للعمل مع ميلاسو C.Meillassoux (1960) الذي يبين بأن العمل ليست له قيمة في المجتمعات التقليدية الافريقية.

2- لا يذكر بوردية سوى القليل من المراجع في مؤلفاته. لايذكر فانون سوى في الفهرس. ليبتعد عن شغفه بالطابع الثوري للفلاحين الجزائرين.

3- يدرج الفرق بفضل المقاربة الماركسية للعمل خاص في مؤلفه حول بورديو لسنة 1996.

4- هذه العبارة بطبيعة الحال لماركس والتي كانت معروفة بكثرة في تلك الفترة ولم يكن بورديو بحاجة لتذكير الكاتب بها.

5- voir Balandier, Anthropologie politique, PUF, Paris 1967. Ainsi que du même auteur, Sens et puissance. PUF, 1971.

6- G. Althabe G, Oppressions et libérations dans l'imaginaire, Maspero, Paris,1969.

7- هذه الملاحظة لا تهم بالضبط فرنز فانون.

8-Voir Althabe G., Oppressions et libérations dans l'imaginaire, Maspero, Paris,1969. Ainsi que , Anthropologie politique d'une décolonisation, Paris, l'Harmattan, Paris,1998.

9-Althabe G., Vers une ethnologie du présent, Revue de l'institut de sociologie, Bruxelles, n°3-4 :89-98.